قــــ أســـــاســـــة

تشكل القيم التي نحملها، ونكن لها الاحترام والتقدير ـ القاعدة التي يقوم عليها السلوك. ومع أن هناك مفارقة شبه مطردة بين الإطار النظري والاعتقادي وبين السلوك والتطبيق إلا أننا جميعًا نؤمن بضرورة نقاء القاعدة القيمية ووضوحها؛ لأن المرء من غير قاعدة قيمية متينة يفقد مصدر التوجيه الأساسي في حياته، كما يفقد البصيرة التي يرى من خلالها الأشياء.

هناك اعتقاد عام على المستوى العالمي بأن الأجيال الجديدة تعاني من نقص كبير في القيم والمُثُل والتسامي، ولذا فإن دولاً عديدة في الغرب تفكر جديًّا في إعادة التربية الدينية والخلقية إلى المدارس، بعد أن كانت تظن أن المبادئ العلمانية التي تدعو إليها تغني عن التربية الدينية. لن نبالغ إذا قلنا: إن مستقبل المسلمين جميعًا متوقف على مدى تشكيل القيم والأخلاق الإسلامية لسلوكنا ومواقفنا ومدى قدرتها على تنظيم ردود أفعالنا؛ وإنه لا يعادل صحة تلك القيم شيء سوى فاعليتها وحضورها في تفاصيل حياتنا.

وإني آمل أن نجعل الحديث عن الفضيلة آخر وسيلة يمكن أن نستخدمها في ترسيخها في نفوس أبنائنا وطلابنا؛ فالكلام الكثير عن الأخلاق قليل النفع، ويجب ألا نلجأ إليه إلا عند وجود مناسبة وفرصة ملائمة. والأصل أن يتشرب الصغار القيم لا عن طريق النصح والتوضيح؛ ولكن عن طريق المعايشة والاحتكاك بالكبار والعدوى الروحية.

لو أردنا التحدث عن كل القيم التي علينا أن نركز عليها في تربية الناشئة إذن لطال بنا الحديث، فلنقتصر على المهم منها، وذلك في الحروف الصغيرة الآتية:

الإيمان الحي:

الإيمان بالله ـجل وعلاـ أول قيمة ينبغي أن نهتم بها، وننشِّئ أبناءنا عليها، فهو القاعدة العظمى التي من غيرها لن يجد المسلم أي إطار مرجعي ذي قيمة لكل الأخلاق والقيم الأخرى. نحن نريد ترسيخ الإيمان ليس بوصفه قناعات عقلية فحسب، ولكن بوصفه مشاعر وأحاسيس بمراقبة الله ـتعالىـ، والخضوع والاستسلام له، والاغتباط بفضله وإحسانه. إن الإيمان الحي يدفع المسلم دفعًا إلى مناجاة الله ـتعالىـ في السراء والضراء، والاعتصام به عند الكروب والأهوال. وحين يصبح الإيمان على هذه الصورة، يكون مصدرًا لابتهاج الروح وراحة الفؤاد واطمئنان النفس. وبذلك يستطيع الشباب مقاومة تيار الشهوات الجارف الذي اجتاحت أمواجه كثيرًا من الفتية اليوم. وليس أمامنا لتوليد تلك الأحاسيس والمشاعر المباركة الندية سوى طريق واحد؛ هو كثرة التعبد لله ـتعالىـ بأداء الفرائض، واجتناب المعاصي، وكثرة النوافل والقربات. ويجب أن يكون هذا واضحًا لدى الكبار والصغار.

النية الصالحة:

كان سلفنا ـرحمهم اللهـ يركزون كثيرًا على موضوع (النية) وضرورة إخلاصها لله ـتعالىـ، وكانوا ينظرون بحساسية قوية لموضوع طلب العلم؛ حيث كانوا يشددون على ضرورة أن يكون طلبه لله ـتعالىـ، وأن يتأكد طالب العلم من خلوص مقاصده من شوائب الجاه والمال وحب الظهور ومنافسة الأقران؛ وما ذلك إلا لأنهم يعدُّون طلب العلم وتعليمه من أعظم ما يتقرب به المسلم إلى ربه، وكانوا يرون أن ثوابه أعظم من ثواب النافلة وصلاة التطوع.

يقول الغزالي ـرحمه اللهـ: (أيها الولد، كم من ليلة أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب، وحرّمت على نفسك النوم، لا أعلم ما كان الباعث فيه؟ إن كانت نيتك نَيْل عَرَض الدنيا، وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهاة

على الأقران والأمثال؛ فويل لك ثم ويل لك. وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي ـصلى الله عليه وسلمـ، وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمارة بالسوء؛ فطوبى لك ثم طوبى لك)[1].

إن أسعد الناس بالعلم هو الذي يطلبه قربة إلى الله ـتعالىـ؛ لأنه يقصد به إصلاح شأنه ونفع الناس. ومن طلاب العلم من يقرن بذلك الحصول على شهادة تفتح له باب رزق، وهذا دون الأول. ومن الناس من يطلب العلم سعيًا في إشباع نهمه إلى الاطلاع واجتراح المجهول. وهناك إلى جانب هؤلاء من لا يعنيه شأن العلم في شيء، وكل مراده الوصول إلى شيء من الدنيا عن طريق العلم الذي لديه، وهذا في المترلة السفلى.

ويؤسفني القول: إن كثيرًا من طلاب العلم اليوم لا يملك أي شيء من نية الاحتساب في طلب العلم، كما لا يملك الرغبة في البحث والاطلاع، ولذا فإنه يتعامل مع المعرفة على أساس تجاري بحت، إنه يبذل أقل جهد ممكن في سبيل الحصول على الشهادة، ولو استطاع أن ينال تلك الشهادة دون أي جهد لما تردد في ذلك! وقد قالوا قديمًا: (العلم إن لم تعطه كلك لم يعطك بعضه). إن الرزق مقسوم، وإن مجرد حمل العلم يهيئ الإنسان لينال شيئًا من الدنيا، ولكن عندما تصح النية؛ فإن المرء ينال ثواب الآخرة، كما يقطف ثمار جِدَّه واجتهاده في الدنيا، وهذا من جملة التوفيق.

الابتهاج بمعرفة الحقيقة:

في زمان كثرت فيه التضحية بالحق والحقيقة من أجل تحقيق مصالح دنيوية صغيرة ـ يمسي الاهتمام بترسيخ هذه القيمة العظيمة أمرًا في غاية الأهمية. إن الحق اسم من أسماء الله ـتعالىـ، ورسالة الإسلام هي الحق الذي جاء به الرسول

(1) أيها الولد، لأبي حامد الغ الي، ص105، ط/ دار الاعتصام.

ـصلى الله عليه وسلمـ، وقد خلق الله السموات والأرض بالحق. والاعتراف بالحق والإذعان له، والتأثر بسبب الاهتداء إليه ـ شأن من شؤون النفوس الكبيرة. وقد قصَّ الله ـتعالىـ علينا نبأ القسيسين والرهبان الذين تفاعلوا مع الحق وأذعنوا له، وانحازوا إلى أهله حين قال: {**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿82﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**} [**المائدة**: 82،83]. إنهم من شدة اغتباطهم بمعرفة الحق الذي سمعوه لم يجدوا الكلمات التي تعبر بصدق عن عاصفة المشاعر التي اجتاحتهم، فذرفوا الدمع ليعبر عنها أصدق تعبير. ولم يكتفوا بالتأثر، ولكن بنوا عليه موقفًا جريئًا حين تركوا زعامتهم في ديانة قومهم، وأعلنوا الانضمام إلى أمة التوحيد محتملين كل الأذى الذي يترتب على ذلك.

في مقابل هذه الفئة الخيِّرة هناك فئات كثيرة من البشر تُعرِض عن الحق، وتأبى الإقرار به والانصياع له بحجج واهية، فقد يحتج المعرض عن الحق بأنه ليس حقًا ولا حقيقة، كما فعل كفار قريش حين وصفوا القرآن الكريم بأنه سحر وكهانة وشعر. وقد يعرض عنه بحجة عدم وضوحه. وقد يعرض عنه بحجة عدم قدرته على تحمل التكاليف التي تترتب على الاعتراف به. وقد يعرض عنه بحجة دفع الضرر الذي يجلبه الإقرار به... وهكذا.

من المهم جدًّا أن يفهم الناشئة أن قوة الحقيقة ذاتية، وأن تجاهلها دائمًا مؤذٍ، وأن الاعتراف بها ـوإن ترتب عليه بعض الخسائر العاجلةـ مجلبة لخير كثير على المدى البعيد. وعلينا معاشر الكبار ألا نحمل الصغار على إنكار الحق بسبب العقوبة المغلظة التي نرتبها على الاعتراف به. بل ينبغي أن نفعل العكس من ذلك، ونقول للصغير: قل الحقيقة ولا تخف من العقوبة، أو ستكون العقوبة

مخففة. وإذا أنكرت الحق الآن فسوف نكون قادرين على معرفته، وستكون العقوبة مضاعفة.

إن نصرة الحق ونشره وتقريره من المهمات الكبرى للمسلم في هذه الحياة. وإن الدعوة إلى الله ـتعالى ـ التي يعد القيام بها شرفًا لكل مسلم ـ ما هي إلا نشر للحق الذي جاء به النبي ـصلى الله عليه وسلم ـ، وعلينا أن نقول الحق ولو على أنفسنا؛ فذلك من القيام لله ـتعالى ـ بالقسط.

إن المعلم الذي يقبل بحثًا أو لوحة من طالب يعلم أنه ليس من عمله، ويضع له درجات على ما تلقاه منه ـ يشجعه على الاستخفاف بالحق والحقيقة، ويكون بذلك كالتي تنقض غزلها أنكاثاً.

التحرر من القيود:

من المهم جدًّا أن نسعى في تربيتنا في البيوت، وفي تعليمنا في المدارس إلى تكوين الإنسان الحر الذي يشعر بوجوده، ويشعر بمعنى ذلك الوجود. والحقيقة أن الله ـجل وعلا ـ ركز في فطرة الإنسان نزوعًا عميقًا نحو التحرر من القيود، والتخلص من الضغوط المختلفة التي يتعرض لها في حياته. لكن ذلك النزوع كثيرًا ما تنطمس معالمه بسبب الظروف السيئة التي يعيش فيها الإنسان، وبسبب التربية السيئة التي يتلقاها كثيرون منا. وإذا نظرنا في السياسات التي يتبعها كثير من المربين وجدنا أنها تركز على تنشئة الفتى المطيع الصامت الذي ينفِّذ كل ما قيل له دون أي اعتراض أو تفكير، والذي يصدق كل ما يقال له دون أي مناقشة. إنهم يسعون إلى بناء جيل من الإمَّعات المقلدين؛ حيث يكون شق طريق جديد أمرًا يبعث على الريبة، وحيث يكون السير خلف الآخرين أمرًا محمودًا ومرغوبًا! إنهم يبنون جيلا ماهرًا في العثور على محاسن الظلم الذي يقع عليه، ويعلِّمونه كيف يُصفِّق لظالمه، وكيف يكبت مشاعره إلى ما لا نهاية! مع أن

الإسلام يحث بنيه على أن يجادلوا عن الحق، ويقفوا إلى جانبه، ويدافعوا عنه؛ كما يحثهم على دفع الظلم، والأخذ على يد الظالم، والانتصاف منه لصالح المظلوم.

لا شك أن أسوأ القيود التي تشل حركتنا هي القيود غير المرئية، والتي تتمثل في أوهامنا وعاداتنا السيئة، وسيطرة رغباتنا علينا، وقلة الخيارات أمامنا. إن من واجبنا أن نوضح للناشئة الأسس والإمكانات والمفهومات التي تجعل منهم جيلاً حرًّا أبيًّا. وأعتقد أن لدينا ثلاثة أمور تحدد الدرجة التي نتمتع بها من التحرر والانعتاق من أغلال العبودية والهوان والانحسار، وتلك الأمور هي: العلم والإرادة والإمكانات. فعن طريق العلم نتخلص من قيود الجهل والخرافة والمقولات التي ليس لها أي سند من دليل أو برهان. كما نتخلص من المفهومات التي تشكل منطق التخلف ومنطق العجز لدى الإنسان المسلم.

وبالإرادة الصلبة نتخلص من عبودية الشهوات والرغبات والعادات السلبية، ونوقف التدهور في حياتنا الشخصية والخاصة. وبالإرادة نعمل ما يملي علينا العقل والخبرة القيام به.

وعن طريق تحسين الإمكانات نتخلص من ضغوط البيئة؛ حيث إن جوهر الحرية يكمن في القدرة على الاختيار؛ وهي تتحدد بمدى توفر البدائل التي سنختار منها ما يلائمنا. والبدائل لا تتوفر إلا إذا تحسنت إمكاناتنا المعنوية والمادية. إذا أرادت مؤسساتنا التعليمية أن تنشئ جيلاً حرًّا، فلتحاول تحسين مستوى التفكير لديه، وتنمية الوازع الداخلي الذي يشكل نواة الإرادة الصلبة. ولتحاول تنمية مواهب الطالب، وتحسين مهاراته، وتكوين النفسية الإيجابية لديه؛ من أجل مساعدته على العثور على البدائل المتعددة، ومساعدته على إيجادها. هذا هو فهمي للتحرر، وأعتقد أنه سيكون من انحطاط الجيل أن يشعر

أن الحرية تعني التحلل من الواجبات الشرعية والاجتماعية، والبحث عن المتع والشهوات، والتخفف من القيود الأخلاقية، والتمرد على النظم والقوانين التي تؤطر حركة الحياة.

الشعور بالمسؤولية:

شعور المرء بالمسؤولية تجاه نفسه ودينه وأهله ومجتمعه من القيم الجوهرية؛ إذ إن من أهم سمات الإنسان الحر أنه يملك حساسية فائقة نحو الواجبات المترتبة عليه، ونحو استخدام الإمكانات المتاحة له. وقد باتت حاجتنا إلى هذه القيمة كبيرة اليوم؛ لأن إمكانات الرقابة على الأشياء آخذة في الضعف المستمر؛ حيث تعوَّدنا منذ أجيال بعيدة أن نبحث عن كبش فداء نحمِّله أخطاءنا وعيوبنا.

أضف إلى هذا أننا حين نواجه مشكلة نرغب أن نعثر لها على حل نكلِّف به غيرنا؛ حتى لا نبذل أي جهد إضافي! إن تحميل الشريعة الغراء الإنسان كامل المسؤولية عن تصرفاته منذ البلوغ إلى آخر يوم في حياته؛ دليل واضح وقوي على ضرورة تربية أبنائنا وطلابنا على الاستعداد لتحمل تبعة أقوالهم وأعمالهم.

إن صِدْق الإنسان وإقراره بما فعل ـمهما كان سيئًاـ دليل على الشعور بالمسؤولية، والتوبة والاعتذار عن التقصير لا يكونان إلا عند الشعور بالمسؤولية.

اليابانيون يؤسسون الشعور بالمسؤولية لدى الأطفال منذ المرحلة الابتدائية، عن طريق جعلهم ينخرطون في أعمال خدمية تعود بالنفع على مدارسهم وعليهم في النهاية، فعند اختتام اليوم الدراسي لا يكتفي الطلاب بكنس الغبار وإزالته وترتيب قاعات الدرس، بل يمسحون الأرضيات والممرات بقِطَع القماش المبلل. كما أن الطلاب يتناولون وجبة الغداء في المدارس. والنظام السائد هناك يقضي بأن يقوم بعض الطلاب ـبحسب الدورـ بإنزال الوجبات من الشاحنات، ويقوم آخرون بوضعها في الفصل، ويقوم فريق ثالث بإعادة الفصل بعد الغداء

إلى سابق عهده. وهم يهدفون من وراء هذا النظام إلى تنمية روح المسؤولية، وتعويد الطلاب على الخدمة الاجتماعية، إلى جانب تعزيز مشاعر الانتماء للمدرسة؛ مما يجعلهم أقل ميلاً إلى التخريب الذي يمارسه بعض الطلاب عادة. إنهم يُفهِمون الطلاب هناك أن الشعور بالمسؤولية ليس أحاسيس تختلج في النفس؛ بمقدار ما هو أعمال وممارسات ومواقف وردود أفعال.

فضيلة المثابرة:

الموروث الثقافي الشعبي لدينا يركز دائمًا على الذكاء بوصفه الأداة الأساسية للتميز والتفوق. وقد كانت هذه النظرة في موضعها حين كان المتوفر من المعرفة والثقافة المتعلقة بالإنجاز محدودًا، كما كانت فوائد التدريب واكتساب المهارات معدومة أو غائبة عن الوعي. أما اليوم فقد اختلف الأمر؛ حيث إن قيم المثابرة على العمل والاستمرار في بذل الجهد، وتركيز الاهتمام ـ باتت أهم في إحراز السبق والتفوق على الأقران من الذكاء الذي يرثه الإنسان عن أبويه وأجداده. إن الله ـجلَّ وعلاـ وزَّع الذكاء على الشعوب بالتساوي؛ فليس هناك شعب اختصه الله بالذكاء المفرط، ولا شعب ابتلاه الله بالغباء الشديد، ففي كل أمة نسبة شبه متساوية من الأذكياء والأغبياء ومتوسطي الذكاء، لكن إنجازات الشعوب اليوم متفاوتة تفاوتًا هائلاً كما نرى. وهذا التفاوت يعود قطعًا لأمور غير الذكاء والإمكانات العقلية الخَلْقِيَّة. ومن أهم ما يعود إليه التفاوت المشار إليه: المثابرة على العمل، والدأب في التنفيذ؛ حتى قد صار من المسلَّم به أن قيمة أي منتج تعكس إلى حد بعيد عدد ساعات العمل التي بُذلت فيه؛ كما صار من المسلَّمات أن من أكبر عيوب الشعوب النامية أنها تؤمن بالطفرة، وترجو منها أكثر مما ترجوه من العمل البطيء الهادئ المستمر. وقد عالج النبي ـصلى الله عليه وسلمـ هذا المفهوم على مستوى القول وعلى مستوى الفعل، فقد ورد أن النبي

ـصلى الله عليه وسلمـ دخل على عائشة وعندها امرأة، قال: «من هذه؟ قالت: هذه فلانة ـتَذْكُر من صلاتهاـ قال: مَهْ! عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملُّ الله حتى تملوا. وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه»[1]. وقال ـعليه الصلاة والسلامـ لعبد الله بن عمرو بن العاص ـرضي الله عنهـ: «يا عبد الله! لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل، فترك قيام الليل»[2] أما على المستوى العملي فقد كان ـصلى الله عليه وسلمـ إذا لم يتمكن من الصلاة في الليل بسبب وجع أو غيره ـ يصلي من النهار اثنتي عشرة ركعة[3]، وذلك توكيدًا لنفسه وللأمة على ضرورة المحافظة على ما اعتاده الإنسان من الخير والبر.

إن كثيرًا من أبنائنا تجتاحهم موجات من الحماسة للقراءة والاطلاع الجيد؛ لكن ذلك لا يدوم طويلاً؛ حيث يهجرون الكتاب الشهر والشهرين؛ ولذا فإن التثقيف لديهم لا يأخذ سمة التواصل والتراكم، كما أنهم قلَّما يبدؤون بعمل وينهونه! وينعكس كل ذلك على الإنجاز لديهم.

لا بد أن نرسِّخ في نفوس الطلاب الاهتمام ببرمجة جزء من الوقت اليومي ـعلى الأقلـ، وتخصيصه لاكتساب المعارف والمهارات، وإلا فإن الأمل بتحقيق ارتقاء شخصي حقيقي سيكون ضعيفًا.

التميز الحقيقي:

إذا نظرنا في حياة السواد الأعظم من الناس لوجدنا أنهم أشخاص عاديون، أو هم أنماط مكررة للنموذج السائد في البيئة. وأمة الإسلام التي تسابق الزمن لكي تردم الهوة بينها وبين الأمم التي سبقتها في مجالات ليست قليلة ـ بحاجة إلى

(1) أخرجه البخاري، تاب الإيمان، باب: أحب الدين إلـ الله أدومه.
(2) أخرجه البخاري، تاب التهجد، باب: ما يـ ر من ترك قيام الليل لمن ان يقومه.
(3) أخرجه مسلم، تاب الصلاة، باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، عن عائـ ة ـرضي الله عنهاـ قالت « ان رسول الله صلـ الله عليه وسلم إذا عمل عملاً أثبته، و ان إذا نام من الليل أو مرض صلـ من النهار ثنتي عـ رة ر عة ... »

جيل؛ لا أقول متميز، ولكن فيه شريحة جيدة من المتميزين الذين يتَّسمون بسمات أرقى مما هو سائد بين الأقران.

الشباب يحبون الاستقلال والانفراد؛ لأنهما طريقهم إلى إثبات الذات، ولكن كثيرًا منهم يخطئ الوسيلة التي تجعله متميزًا. وقد صار كثير من الناس يبحثون عن الاختلاف عما هو سائد؛ عن طريق الحصول على رقم هاتف أو رقم لوحة سيارة متميز، أو عن طريق الشراء من متاجر، أو النزول في فنادق فخمة ظانين أن ذلك يجعلهم من الصفوة! وهذا في الحقيقة جزء من مرض عام بات يجتاح حياة كثير من الناس، وهو مرض (الشكلية!)، فهناك اليوم مدارس ليس فيها من الرقي سوى فخامة مبانيها، حتى كأنها قصور تعليمية. وليس فيها من التعليم سوى حسن مجاملة إداريها، هنا وهناك... وهذا الطلب الشديد على البروز الشكلي لدى الشباب كثيرًا ما يكون صدى لفراغ روحي وخلقي وفكري مخيف. وأعتقد أن على بناة الأجيال أن يهتموا بهذا الموضوع، وأن يزينوا في نظر الناشئة بعض صور التميز الحقيقي، مثل الحصول على شهادة أو خبرة عالية جدًّا، ومثل تقديم عمل تطوعي؛ لا يقدم عليه في العادة إلا عدد قليل من الناس، وذلك مثل خدمة مريض في مستشفى أو العمل في مؤسسة خيرية، ومثل اتباع نظام دقيق في الدراسة، أو استثمار الوقت بطريقة فذة وما شابه ذلك... إن المتميزين هم الرواد الحقيقيون الذين يمهدون الطريق ليسير الناس خلفهم؛ وفي إمكان كل واحد من أبنائنا أن يكون في عدادهم لو أحب.

روح الفريق:

لم نكن في يوم من الأيام أحوج إلى التحلي بروح التعاون والقدرة على العمل ضمن فريقٍ منَّا في هذه الأيام؛ حيث إن من طبيعة التقدم الحضاري أن

يوجد الكثير الكثير من الأعمال التي لا يمكن إنجازها إلا عن طريق المجموعات والفرق والمؤسسات.

وإن جعل الطلاب يعملون بروح الفريق الواحد يجب أن يتم عن طريق غير مباشر؛ وذلك من خلال تشكيل المجموعات المتعاونة؛ حيث يمكن تقسيم الفصل الدراسي الواحد إلى مجموعات، تتشكل كل مجموعة منها من خمسة أو ستة طلاب، ويتعاون أعضاء كل مجموعة فيما بينهم في حل الواجبات وتحضير الدروس وتنفيذ بعض المشروعات العملية، وكتابة بعض البحوث، كما أنه يمكن للطلاب الأقوياء في المجموعة أن يساعدوا الطلاب الضعفاء على فهم دروسهم. ويُعيَّن لكل مجموعة مرشد من المعلمين، يتولى رعايتها وإرشادها إلى منابع الثقافة ومصادر المعرفة، كما يقوم بإرشادها إلى الطريقة الصحيحة في الدراسة وتنظيم الوقت.

ويمكن لإدارة المدرسة أن تجد في رؤساء المجموعات من الطلاب خير معين لها في فهم مشكلاتهم والمساعدة على حلها. ولا بد مع هذا أن نرسِّخ في أذهان الطلاب أن بروز الفردية في سلوكهم يجلب لهم عددًا من الأضرار والعيوب، مثل الأنانية، والعزلة، والعجز عن التلاؤم مع الآخرين، والغرور، والشعور بالضعف، وما شاكل ذلك.

ليس المال أكثر من وسيلة:

تسود في أيامنا هذه موجة عظيمة من استهداف جمع المال، والميل إلى جعل الاستحواذ عليه هدفًا لكثير من أنشطة الحياة. وقد غطت هذه الموجة المادية الهائلة على كثير من معاني السمو الإنساني، والتروع نحو الاعتبارات الأخلاقية التي تشكل أجمل وأروع ما في هذه الحياة. وفي هذا حط من كرامة الإنسان، وتقزيم لدوره العظيم في هذه الحياة. وقد انتشرت بعض المقولات التي تعبر عن

هذه الوضعية، من مثل قولهم: المال هو كل شيء، وبالمال تستطيع أن تصنع كل شيء، وأن تحصل على كل شيء، والذي معه قرش يساوي قرشًا، والذي ليس معه شيء لا يساوي أي شيء...!!!

هذه المقولات حين تكون واقعية ومعبرة عن حقائق معيشة؛ فإنها تدل على فساد إداري واجتماعي عظيم. وهي في كل الأحوال لا تحكي سوى جزء من الحقيقة الكبرى. وحين نحاول تجاوز القشور إلى الجوهر؛ فإننا سوف نجد أن المال ليس أكثر من وسيلة نستخدمها في قضاء حوائجنا؛ ولذا فقد يستخدم في بناء الحياة وازدهارها وجلب الراحة والطمأنينة لأهله، وقد يكون وبالاً عليهم، ووسيلة لتدميرهم في حاضرهم ومستقبلهم.

إن من المهم للمربين في البيوت والمدارس أن يشرحوا بطرق مختلفة لأولئك الذين يقومون على تربيتهم أن الثروة الحقيقية والمتجددة في حياة الأفراد لا تقوَّم من خلال الأرقام والأرصدة والعقارات والممتلكات، ولكن من خلال نوعية الدوافع التي يمتلكونها ونوعية الاهتمامات التي تسيطر عليهم؛ فالذي يملك الدوافع القوية والمستمرة لعمل الخير والارتقاء بذاته، وإحراز التفوق والنجاح يملك مفاتيح الحياة الطيبة التي تستخدم المال في تحقيق ذاتها. وإن كثيرًا من العظماء لم يكونوا يملكون الكثير من المال، كما أن كثيرًا ممن يملكون الثروات فقدوها، وصاروا بلا حول ولا طول، أو صار المال مصدر شقاء يومي لهم، وكثيرين منهم فقدوا الإحساس بمعنى المال في حياتهم، ولكن لم يستطيعوا التخلص من تبعات امتلاكه!

إن جعل امتلاك المال غاية عوضًا عن أن يكون وسيلة؛ يشكل خطرًا على التزام المسلم، وعلى توازنه الشخصي، وعلى قيامه بالحقوق الأسرية والاجتماعية المترتبة عليه. إنه في جوهر الأمر يحوّله من سيد يتصرف بالمال لتحقيق غاياته إلى

عبد يستخدمه المال في تحقيق قانونه، وهو الجمع والجمع وحده! ولا بد من أن نجعل أبناءنا وطلابنا على وعي بذلك، وينبغي أن يلمسوا هذا المعنى في أحاديثنا وتحليلاتنا، وفي سلوكنا العملي أيضًا.

محاربة الغرور:

يحتاج الجيل الحالي إلى أن يحتفظ برؤية معتدلة لنفسه وللناس من حوله. وقد دلت الخبرات المتراكمة على أن المعتدلين في الناس قليل، وأن لدينا نحن البشر نزوعًا قويًّا إلى الغلو والتطرف. والاعتدال والتوسط من الأمور التي تحتاج إلى تشغيل الذهن ومجاهدة النفس في آن واحد.

وفي عالم يتصارع فيه الناس على السلطة والمكانة والنفوذ يكون الحديث عن (التواضع) أمرًا مستهجنًا لدى كثير من الناس. بل ربما ذُكرت كلمة (متواضع) في سياق الاتهام بالغفلة والسذاجة والضعف. وقد صار معظم الناس يتحدث عن الثقة بالنفس بوصفها ضرورة للنجاح في الصراع الوجودي الحالي. ومناهجنا في التعليم الجامعي على نحو أخص تبذر في نفوس الطلاب بذور الكبر والتعالي. وقد صار كثير من الطلاب يدخل الجامعة وهو جاهل متواضع، ويخرج منها وهو جاهل مغرور متكبر! والأسوأ من ذلك أن يجمع خريج الجامعة بين الكبر والغرور، وبين عدم الثقة بالنفس. وذلك لأن طريقة التعليم التي تعلَّم بها تُشعره بالامتلاء الكاذب، ولا تساعده في التعرف على إمكاناته الحقيقية.

ولذا فإن من المهم جدًّا أن يدرك طلابنا أن ما حصَّلوه من معرفة ضئيل جدًّا بالنسبة إلى ما هو موجود، وبالنسبة لما يجب أن يعرفوه أيضًا؛ وأن طريق النضج المعرفي طريق طويل وشاق، وأن الغرور مفتاح لشرور كثيرة، ولو لم يكن فيه سوى القناعة بعدم الحاجة إلى المزيد من الارتقاء والتقدم الفكري والمعرفي لكان شيئًا مدمرًا!

الجيل الجديد مطالب في الوقت نفسه أن يدرك: أن التقدم العلمي الهائل ملّكه أدوات ومفهومات للتحسن والتفوق لم تكن موجودة لدى الأجيال السابقة، وقد بقي عليه أن يعرف كيف يستفيد منها، وبوابة الاستفادة منها تتمثل في اعتقاد الطالب أنه صغير ولكنه ينمو، وجاهل ولكنه يتعلم، وضعيف ولكنه يشتد ويقوى. ثقة المرء بنفسه مطلوبة حتى لا يقع في براثن الشعور بالعجز والانحسار والتهميش؛ ولكنه بحاجة مع هذه الثقة أيضًا إلى احترام الناس، وإدراك حدود الممكن الذي يتحرك فيه، وأن في محيطه من يمكن دائمًا أن ينفتح عليه، ويستفيد منه.

الرفاهية الروحية:

في غمرة الحضارة الحديثة انفتحت شهية الناس نحو الاستهلاك على نحو لم يسبق له مثيل؛ وهذا زاد في تكاليف العيش الكريم، ومع هذه الزيادة يزداد الشعور بالضنك على الرغم من كثرة الخيرات؛ مما أشاع أمراض الشح والأنانية والأثرة والدوران في فلك الذات بعيدًا عن التفكير في هموم الأقربين من المسلمين وفي حاجاتهم الملحة. ولهذا فإننا صغارًا وكبارًا بحاجة ماسة إلى أن ننمي في نفوسنا معاني التضحية والإيثار والعطاء المجاني؛ حتى نستطيع مقاومة التيار الأناني الذي يجتاح حياة الأمة. ومن الواضح أن المكافأة على كل شيء مجاني نقدمه لنجدة من حولنا تكون دائمًا فورية؛ حيث نشعر بانشراح الصدر وغشيان السكينة، كما نشعر بغبطة الانتصار على النفس الشحيحة، وبالأناقة والرفاهية الروحية التي يشعر بها كل من قام بأمور زائدة على الواجب. وحين تخلص النية في ذلك؛ فإن ما ننتظره من مثوبة الله في الآخرة وتعويضه في الدنيا يفتح لنا أبواب الأمل والرجاء على مصاريعها، وبذلك نشعر بالأمن والاطمئنان. وقد أثنى الله ـجل وعلاـ على النموذج الرفيع جدًّا الذي قدمه الأنصار في استضافة إخوانهم المهاجرين حين قال: {**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ**

هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

مهما كثر الخير لدى الناس، وعمهم الرخاء؛ فإنهم سيظلون يتوقعون اللمسة الإنسانية من قريب وصديق وجار وزميل؛ حيث إن في هذه الحياة أشياء كثيرة لا يمكن الحصول عليها عن طريق المال. ومن واجبنا التأكيد على معنى التضحية في البيوت والمدارس وفي كل مكان، وأن يحاول المربون أن يرسخوا هذا المعنى في نفوس الناشئة عن طريق تضحيتهم هم بشيء من جهدهم ووقتهم ومالهم وراحتهم. وبذلك نسترجع بعض ما فقدناه من مباهج الروح، ومن سلام التحقق بالمنهج الرباني الأقوم.

الوفاء بالوعد:

من القيم المهمة التي لا تستقيم حياتنا الاجتماعية من غيرها قيمة الوفاء بالوعود والعهود والعقود؛ حيث يؤدي إدمان الإخلاف لها إلى نزع الثقة بين الناس، وحيث تتعطل مصالح كثيرة؛ ولذا جاءت النصوص الصريحة بوجوب التزام المسلم بالوفاء بما قطعه على نفسه من عهود ووعود؛ وقد قال الله ـتعالىـ: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}** [المائدة: 1] ، وقال ـعليه الصلاة والسلامـ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»(1).

ومن المُشاهَد اليوم أن اهتمام كثير من الناس بما التزموا به صار ضعيفًا، وذلك صدى لضعف التدين لديهم، وعدم مبالاتهم بالقيام بأمر الله ـتعالىـ والانتهاء عن نهيه. ومن وجه آخر فإن طغيان المجاملة على حياتنا الاجتماعية جعلنا نسرف في إعطاء وعود لا نستطيع الوفاء بها، أو لا نعتقد أنه يجب الوفاء بها؛ لأن الذي تلقى الوعد تلقاه وهو يعلم أننا قد نكون غير جادين بالوفاء به!

(1) أخرجه البخاري، تاب الـ هادات، باب: 28، ومسلم، تاب الإيمان، باب: بيان خصال المناف . واللف له.

ونحن نعاني من مشكلة أخرى، هي عدم الدقة في تنفيذ الوعد والمماطلة في ذلك، وهذا أحد أمراضنا الحضارية الخطيرة. ويبدو أن الإحساس بقيمة الوقت منتج حضاري؛ فعلى مقدار ما ترتقي الأمم في سلم الحضارة تقدِّر قيمة الوقت، وتنظم حياتها على نحو يراعي تلك القيمة.

قد يستطيع المربون تنشئة الجيل على هذه القيمة من خلال الالتزام بتنفيذ ما قطعوه على أنفسهم من وعود وعهود، ومن خلال الاعتذار والتأسف عند عدم القدرة على التنفيذ، وعن طريق التقليل من إعطاء الوعود إلا عند التأكد القوي من إمكانية إنجازها. كما أن مما ينفع في هذا تنبيه الطالب إلى عدم التسرع بإعطاء وعد لم يكن عازمًا على الوفاء به، وعارفًا بعدم قدرته على ذلك.

إن الإسلام ينظر إلى (الكلام) على أنه (عمل)، وسوف يُحاسَب صاحبه عليه كما يُحاسَب على أعماله؛ إنْ خيرًا فخير وإن شرًا فشر. ومن كان كلامه من عمله فليدقق فيه كما يدقق في وضع رجله وهو يهبط من منحدر شديد. وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت؛ فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت؛ فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»[1].

التفوق والنجاح:

الحرص على التفوق والنجاح والارتقاء المستمر ـ من المعاني المهمة التي ينبغي أن يحملها أبناء الجيل الجديد؛ ولا سيما أن الحياة تزداد صعوبة وقسوة، وفرص العمل الجيد لا تتاح إلا للمتفوقين المتميزين. ثم إن المسلم الملتزم حين ينجح في أمور دنياه يقدم للآخرين نموذجًا حيًا على ما يقدمه له الإسلام من هدي

(1) أخرجه الترمذي، تاب الـ هد، رقم 2319.

وتسديد في إعمار الأرض وإصلاح شؤون الحياة. ومن واجب المربين أن يوضحوا للفتيان والفتيات بعض المفهومات الأساسية التي تساعدهم على الارتقاء والتقدم، إلى جانب تخليصهم من المفهومات الخاطئة التي كونوها عن موضوع التفوق.

وعلينا في البداية أن نؤكد أن ما يؤدي إلى نجاح المرء وسبقه لغيره عبارة عن شبكة معقدة جدًّا من العوامل. وإن من المجازفة أن نفسر نجاح فلان أو فلان من الناس بأسباب أو عوامل جزئية؛ حيث إن في مقابل كل مثال نسوقه للاستشهاد به على واحد من تلك العوامل عشرات الأمثلة الناطقة بغير ما نقول. وقد كان من الأخطاء المتوارثة في هذا الشأن تفسير نجاح فلان من الطلاب بكونه نشأ في بيت علم، وتفسير نجاح فلان بأنه ذكي؛ فلا يحتاج إلى جهد كبير في الفهم والاستيعاب، وأما فلان فقد تفوق لأنه نشأ في بيت ثراء؛ فلم يكلَّف بشيء من الأعمال التي تشغله عن بُغْيته، كما أنه قد وُفِّر له كل ما يساعده على التفوق، وفلان من الناس كان سبب تفوقه أنه درس في مدرسة أو جامعة ممتازة إلخ... ولو أنك دققت في أحوال الناس لوجدت الألوف من الناس العاديين والمخفقين والمنحرفين الذين نشؤوا في بيوت علمية، وفي أسر ثرية، والذين درسوا في جامعات ممتازة.

ما ذُكِر ـبلا شكـ من الأمور التي تساعد كثيرًا من الطلاب على التفوق، لكنها لا تشكل شروطًا حاسمة أو وحيدة لذلك؛ ولذا فمن المهم أن نوضح لمن نربيهم أن الواحد منهم قد يتفوق تفوقًا عظيمًا ولو لم يكن من أسرة ثرية، أو لا يتمتع بقدرات عقلية ممتازة أو... المهم في كل الأحوال والظروف أن يمتلك الفتى أكبر قدر ممكن من المفهومات والعادات التي تساعده على التفوق، والتي من أهمها: طلب المعونة من الله ـتعالىـ واللجوء إليه والثقة بما عنده، إلى جانب المحافظة على الوقت، والمثابرة، والتركيز على العمل في مجال واضح ومحدد،

والتغلب على الإحباط، وتنظيم الشأن الخاص، والإيجابية، والانفتاح، وتأجيل الرغبات... وإن من واجبنا ـمعاشر الآباء والمعلمينـ أن نقدم التحفيز والتشجيع على نحو مستمر، فذاك هو الوقود الروحي الذي يصنع العجائب!!

الانتماء لأمة الإسلام:

من الواضح اليوم أن العولمة تمارس عملية خلع واسعة النطاق، فهي تحاول تفكيك الأسرة بإضعاف الصلة بين أبنائها، كما تحاول تفكيك المجتمع بإضعاف الانتماء إليه، كما تحاول تفكيك الأمة من خلال جعل كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية وحدة قطرية غارقة في همومها الخاصة. وقد بدأت مظاهر التفكك تتجسد في حياة كثير من الشباب من خلال الاهتمام الزائد بالأمور الشخصية، ومن خلال ضعف الاهتمام بالشأن العام، وضعف روح الانتماء للأمة وللمجتمع المسلم الذي يعيشون فيه.

إذا تأملنا في الرؤية الإسلامية لموضوع الانتماء وجدنا أنها تكاد تحصر تجليات الانتماء في أمرين؛ هما الإحسان والإصلاح. وانظر معي إلى قول الله ـجل وعلاـ: {**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**} [النحل :90] .

الإحسان يعني امتلاك المسلم القدرة على إشاعة الخير ومساعدة العناصر الضعيفة في المجتمع، كالأيتام والأرامل والمرضى... كما يعني التنازل عن بعض المصالح الخاصة في سبيل تحقيق مصلحة عامة. ويعني كذلك المحافظة على المرافق العامة التي ينتفع بها عامة الناس، والمساهمة في تشييدها وتنميتها وإغنائها. ولأمة الإسلام تاريخ مجيد في هذا الشأن لسنا بصدد استعراضه هنا.

أما الإصلاح؛ فإنه يعني تشجيع بوادر الخير في المجتمع، ونصرة الحق ومؤازرة أهله، ونصرة المظلوم والوقوف إلى جانبه، ومحاصرة الشر، والأخذ على يد المفسدين، وإصلاح ذات البين بإزالة سوء التفاهم بين الأفراد والمجموعات. كما

أن الإصلاح يعني تحسين البيئة الاجتماعية؛ لجعلها أكثر صلاحية لحياة أكرم وأجمل وأمنع.

وقد اعتدنا معاشر المربين أن نؤكد كثيراً من هذه المعاني من خلال الخطابة والوعظ المباشر وسوق الأدلة وذكر النماذج التاريخية، لكننا لم نحصل إلا على القليل مما نريد. ولو أننا أرسينا في بيوتنا ومدارسنا تقاليد ثقافية تشجع على الحوار، والنقد، والصدع بالحق، والنصح بين الكبار والصغار؛ لجعلنا الناشئة يشعرون بأن لهم دورًا مهمًّا في المجتمع، وأنهم جديرون بالاهتمام بقضاياه؛ وهذا هو الذي يجعلهم يشعرون بالانتماء.

وبعد:

فإن هناك الكثير من القيم المهمة التي لا يتسع المقام للحديث عنها، والتي يدركها المربي الحصيف من خلال ثقافته الإسلامية وزاده المعرفي، ومن خلال مشاهداته للانحرافات والمشكلات التي يقع فيها أبناؤه وطلابه. ومن الله الحول والطول.